العناية بالتراث لماذا؟

مصطفى أمين جاهين

التراث الفكري والفني لكل أمة أعز مافي ماضيها المجيد التليد، تستمد منه القوة والحيوية والتجديد والتطور، وتهتدي به في دياجير الأحداث وتقيم عليه حاضرها المشرق الباهر، وتباهي به وتكاثر وتفاخر ..

ولقد كان لتراثنا العربي الفكري والفني والحضاري تقدير عظيم لا يزال يثير الإعجاب، وينطق العلماء من الشرق والغرب بالثناء عليه؛ ولا عجب فهو كنوز ثمينة ضخمة متنوعة الجواهر، من الواجب علينا أن ننقب عنها، وأن نزيل عن نفائسها الغبار، وألا نتركها نهبًا للضياع ..

ومن ثم نجد جدوى الحفاوة بهذا التراث العربي القديم، والإجابة عن تساؤل بعض الناس عن جدوى الحفاظ على تراثنا، وما تجشمنا عناء الكتابة في هذا الموضوع إلا ليكون في جملته إجابة عن ذلك السؤال ..

إن تراثنا مدين في تواصله وتكامل **مقوماته إلى طوائف أربع** من الناس: **أما الطائفة الأولى:** فَهْيَ التي نرفع أيدينا تقديراً لها، وإعظاماً لشأنها، وثناءً عليها، فَهْيَ طائفة العلماء والأدباء الذين أفنوا أعمارهم في التفكير المثمر والإنتاج الغزير، نثراً وشعراً وعلماً وفنًا، وكانوا يطربون لصرير أقلامهم كما يطرب الموسيقار لألحان الآلة التي يعزف عليها .. وهم والحمد لله يعدون بالعشرات بل بالمئات في أغلب الأمصار والعصور..

وأما الطائفة الثانية: فَهْيَ طائفة أرباب المكتبات العامة، وأصحاب المكتبات الخاصة، من ملوك وأمراء وأثرياء وعلماء، لأنهم صانوا كنوز التراث حتى وصلت إلينا تطالبنا بنشرها ..

ولولا الكنوز التي صانوها ما عرفنا شيئًا عن تفاسير الطبري (٣١٠ هـ) .. والزمخشري (٥٣٨ هـ)، والقرطبي (٦٧١ هـ)، وابن كثير (٧٧٤ هـ) وغيرهم ..

وماعلمنا شيئًا عماجمعه البخاري (٢٥٦هـ)، ومسلم (٢٦١هـ)، وابن حنبل (٢٤١هـ)، ونظراؤهم من علماء الحديث الشريف..

وما وقفنا على شيء من معاجم الخليل بن أحمد (١٧٥ هـ)، وابن دريد (٣٢١ هـ)، وابن منظور (٧١٨ هـ)، وأمثالهم ..

وما أحطنا بكثير أو قليل من شعر امرئ القيس (الشاعر الجاهلي)، وجميل بثينة (٨٢ هـ)، وأبي تمام (٢٣١ هـ)، والبحتري (٢٨٤ هـ)، والمتنبي (٣٥٤ هـ) وأشباههم ..

وما درينا شيئًا عن نثر ابن المقفع (١٤٢ هـ)، والجاحظ (٢٥٥ هـ)، وأبي حيان (٤١٤ هـ)، والحريري (٥١٥ هـ)، ومن على شاكلتهم ..

وما عرفنا طب ابن سينا (٤٢٩ هـ)، وابن النفيس (٦٨٧ هـ)، وأمثالهما.

وما ألممنا بشيء من فلسفة ابن سينا، وابن رشد، وإخوان الصفا وأضرابهم ..

وهكذا يتجلى لنا أن تراثنا هو النهر الزاخر الفياض الذي يمدنا بالحضارة والنماء والازدهار ..

فإذا ما أردنا أن نقرب إلى الأذهان ضخامة ما خلف أسلافنا من تراث فعلينا أن نتصور سعة العالم الإسلامي الممتد من شرقي الصين إلى الأندلس، وأن ندرك أن هذا

العالم الفسيح أثرى بآلاف المكتبات العامة والخاصة التي تعمر كل مدينة أو شبة مدينة، لنجد في كل منها مكتبة أو مكتبات حافلة بالمؤلفات التي أورثنا إياها آباؤنا السابقين، يتردد عليها المشغوفون بالقراءة والاطلاع والنقل، ولنجد في كثير من القصور مكتبات يحرص أربابها على تزويدها بأنفس الكتب وأندرها، ولنرى في كثير من المساجد مكتبات موقوفة مباحة للقراء..

وليس أدل على وفرة الكتب التي كانت تزخر بها هذه المكتبات من الأمثلة القليلة التي أستعرضها في السطور التالية:

بلغ عدد الكتب التي كانت في بيت الحكمة الذي أنشأه الخليفة المأمون (٢١٨هـ)، ببغداد أربع مئة ألف كتاب ..

وكان في القاهرة دار الحكمة التي أنشأها الخليفة الفاطمي العزيز بالله، قالوا إنها حوت أكثر من مليون ونصف المليون كتاب وكان بها أكثر من ثلاثين مخطوطة من كتاب العين «للخليل بن أحمد».

وبلغ من شغف العزيز بالله اقتناء الكتب أنه اشترى نسخة واحدة من كتاب تاريخ الطبري بمئة ألف دينار ..

وكان للعرب في الأندلس سبعون مكتبة عامة، منها مكتبة قرطبة التي ضمت نحو نصف مليون كتاب ..

وكان في مكتبة الخليفة الأموي الحكم الثاني بقرطبة ست مئة ألف كتاب، وفيها أربعة وأربعون مجلداً للفهارس ..

وقد جمعت مكتبة منصور بن نوح الساماني أمير بخارى نحو مليون ونصف المليون كتاب ..

واشتملت مكتبة طرابلس الشام على نحو ثلاثة ملايين كتاب، وكان لدى أصحاب هذه المكتبة وهم قضاة آل عمار عدد كبير جداً من النساخ ..

وأما مكتبات الأفراد فهي كثيرة، منها مكتبة علي بن يحيى المنجم، التي أباح للقراء أن يترددوا عليها وقد ذكر أبو معشر المنجم أنه أقام بها زمناً وقرأ ونقل ..

ومنها مكتبة الصاحب بن عباد التي كانت تحتاج إلى أربع مئة بعير لحملها، وكان

فهرسها وحده يشغل عشرة مجلدات.

ولم تكن هذه المكتبات مقصورة على ما كتب باللغة العربية، بل كان في بعضها مئات من الكتب التي ألفها العلماء باللغتين اليونانية والفارسية ..

ويكفي أن نعلم أن الخليفة المأمون (٢١٨ هـ - ٨٣٣ م) نقل إلى بغداد مئات من الكتب اليونانية التي كانت في القسطنطينية، وأنه عقد الصلح مع الإمبراطور على أن يبيح له نقل ما يختاره من كتب العلوم القديمة المخزونة في بلاد الروم، فأجابه إلى ذلك بعد امتناع، فأنفذ المأمون جماعة، منهم الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسلم صاحب بيت الحكمة ويوحنا بن ماسويه وغيرهم، فنقلوا ما اختاروه وكان مما اختاروه كتاب بطليموس في الرياضيات .

ولما صالح المأمون حاكم جزيرة قبرص طلب منه أن يبعث إليه بالكتب اليونانية التي كانت بالجزيرة فبعث بها، وأقام المأمون سهل بن هارون قيِّمًا عليها.

وقد شارك في جمع الكتب واستنساخها بنو شاكر، ذكر محمد بن إسحاق أنه ممن عنوا بإخراج الكتب من بلاد الروم هم:بنو شاكر، وهم محمد، وأحمد، والحسن، وأنهم أنفذوا حنين بن إسحاق وغيره إلى بلاد الروم، فتعلم اليونانية، وجاءهم بطوائف من الكتب وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقا، والطب، والأرثماطيقي ..

وكان ابن لوقا البعلبكي قد حمل معه شيئًا، فنقله، وكان بنو المنجم ينفقون على جماعة من التراجمة، منهم حنين بن إسحاق، وحبيش الحسن، وثابت بن قرة وغيرهم، وبلغت أرزاق هؤلاء التراجمة خمس مئة دينار في كل شهر ..

ولقد ضمت المخطوطات التي في المكتبات العامة والخاصة علومًا وفنونًا شتى، منها اللغة والنحو والصرف، ومنها الأدب والبلاغة والنقد، ومنها التفسير والحديث والأصول وعلم الكلام، ومنها التاريخ والتراجم والجغرافية، ومنها الرياضيات والموسيقا، والطب والصيد، والفنون الحربية، والفروسية ... إلخ.

فإذا ما رجعنا إلى كتاب الفهرست لابن النديم (٣٧٧ هـ: ٤٣٨ هـ) وجدناه يقسم العلوم والفنون في عصره إلى عشرة أقسام، ويقول إنه سيذكر في كتابه هذه الأصناف كلها، وأسماء مؤلفيها وأخبارهم ..

وجاء بعده أحمد بن مصطفى الشهير بـ طاش كبرى زاده (المتوفى سنة ٩٦٨هـ) فألف كتابه (مفتاح السعادة ومصباح دار السيادة) وجمع فيه ستة عشر وثلاث مئة علم، وهي علوم كتب فيها العرب والمسلمون.

وتلاه مصطفى بن عبد الله المعروف بـ حاجي خليفة (المتوفى سنة ١٠٦٧ هـ) فألف كتابه (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) الذي سجل فيه أسماء نحو ثمانية عشر ألفًا وخمس مئة كتاب، وذكر أنه رأى بعينه ستة عشر ألف كتاب منها ..

ثـم جاء التهانوي (١١٥٨ هـ) فألف كتابه (كشاف اصطلاحات الفنون) ذكر فيه أكثر من ألفي مصطلح في الثقافة العربية، وعرف كلاً منها في دقة.

وهكـذا يمتد الحديث عن المخطوطات التي كانت تعمر المكتبات العامة والخاصة، وقد سلم كثير من هذه المخطوطات من عوادي الزمن وعوامل البلى، وما تزال آلاف منها مفرقة في مكتبات العالم ..

فمثلاً في مكتبة برلين أكثر من عشرة مجلدات كبار بأسماء الكتب العربية التي هي فيها، وفي مكتبة الفاتيكان أكثر من خمسة آلاف مخطوطة، وفي مكتبة الأسكوريال بمدريد أكثر من مئة ألف مخطوطة، وهكذا الحال في مكتبات موسكو، ولندن، وڤينا وغيرها...

وأما الطائفة الثالثة : فهي طائفة النساخ الذين سكبوا نور عيونهم على الأوراق فحفظوا هذه المخطوطات من الضياع والفناء، إذ نهضوا بأعباء النسخ، وبلغوا درجة عالية بتجويد الخط وزخرفته ودقة النقل وأمانته، سواء أكانوا ينسخون المخطوط من الأصل الذي كتبه المؤلف نفسه، أم من نسخ آخر منقولة عنه، ولم يكن تكرير العمل أو مشقته لِتَعْدِلَ بهم عن تجويد الخط ومراعاة أصول الضبط.

وأريد أن أوضح أن بعض النساخ كانوا من العلماء والأدباء الكبار، وكان آخرون من ذوي الوظائف العالية في الدولة، حتى إنهم تولوا القضاء والوزارة.

فمـثلاً كان في مكتبة المأمون كثير من النساخ، وكثير من التراجمة على رأسهم

ثابت بن قرة وحنين بن إسحاق.

أذكر من أولئك النساخ **على سبيل المثال:**

◆ - **أبو علي**، محمد بن علي بن الحسين المعروف بابن مُقْلة (٣١٦ هـ) كان جيد الخط، يضرب بخطه المثل، ولا ينازعه في ذلك منازع.

وكان عند سيف الدولة بن حمدان خمسة آلاف ورقة بخط أبي علي هذا، لأنه كان منقطعاً إلى بني حمدان سنوات كثيرة، يقومون بأمره أحسن قيام، وقد تولى الوزارة للمقتدر سنة ٣١٦ هـ.

◆ - **أبو عبد الله**، الحسن بن على بن مقلة (٣٣٨ هـ) كان أكتب من أخيه الوزير أبي علي، وقد ولاه أخوه ديوان الضياع الخاصة، وديوان الضياع المستحدثة وديوان الدار الصغيرة، وكان أبوهما الملقب بابن مقلة كاتباً مليح الخط.

◆ - **أبو سعيد**، السِّيرافي النحوي الحسن بن عبد الله المرزباني (٣٦٨ هـ) كان عالمًا كبيرًا تولى القضاء ببغداد، وكان زاهداً لم يأخذ على القضاء أجراً، أفتى في مسجد الرصافة خمسين سنة على مذهب أبي حنيفة، فما وجد له خطأً.

كان أبو سعيد يعتمد في نفقاته على أجر النسخ، وكان لا يخرج من بيته إلى مجلس القضاء ولا إلى مجلس التدريس حتي ينسخ عشر ورقات، يأخذ أجرتها عشرة دراهم تقوم بمئونته ثم يخرج إلى مجلسه.

وله مؤلفات كثيرة منها:

(١) **شرح كتاب سيبويه.**
(٢) **شرح مقصورة ابن دريد .**
(٣) **وكتاب أخبار النحويين البصريين.**

◆- **علي بن محمد بن عبيد الزبير الأسدي** (٣٤٨ هـ) صاحب الخط المعروف بالصحة، المشهور بإتقان الضبط وحسن الشكل، كان من أجل أصحاب العلامة ثعلب، ومن جماعي الكتب ومحبيها، وله تآليف كثيرة.

◆ - **أبو الحسن علي بن عيسى الرماني** (٣٨٤ هـ) كان إماماً في العربية والأدب، وله مؤلفات كثيرة.

- **ابن البواب**، علي بن هلال (٤١٠ هـ) صاحب الخط المتقن والأدب الفائق، وكان ناثرًا شاعرًا وقيّمًا على خزانة كتب بهاء الدولة بن عضد الدولة بشيراز.
- **أبو حيان التوحيدي** (٤١٤ هـ) كان يحترف الوراقة، ولما اتصل بالصاحب بن عباد قال له الصاحب: الزم دارنا، وانسخ هذا الكتاب، فقال أبو حيان: أنا سامع مطيع.

ثم شكا لبعض الناس أنه جاء من العراق إلى الصاحب ليتخلص من حرفة الشوم فإن الوراقة لم تكن ببغداد كاسدة، فنقل هذا الكلام إلى الصاحب كله أو بعضه أو على غير وجهه فتنكر لأبي حيان.

وحدث أبو حيان فيما بعد فقال: قدّم إليّ نجاح الخادم – وكان ناظرًا على خزانة كتب الصاحب – ثلاثين مجلدة من رسائل الصاحب، وقال: يقول لك مولانا: انسخ هذا، فإنه طلب منه بخراسان، فقلت بعد ارتياد (تدبر وإمعان): هذا طويل ..

- **موهوب بن أحمد بن الحسن الجواليقي** (٥٣٩ هـ)، إمام اللغة والأدب، جميل الخط، تنافس الناس في الحصول على خطه، والعجب به.
- **كمال الدين علي بن حمزة البغدادي** (٥٥٦ هـ) صاحب الخط السلس غاية السلاسة على طريقة علي بن هلال بن البواب، وبخاصة علم المصاحف فإنه لم يكتبه أحد مثله فيمن تقدم أو تأخر (حسب علمي)، كان من الأعيان الأماثل، ولاه الخليفة العباسي المسترشد الحجابة، ووكله وكالة مطلقة، ثم ولاه الخليفة المقتفي لأمر الله، صدرية المخزن.

وأما الطائفة الرابعة : فهي طائفة المحققين الذين نهضوا بنشر هذا التراث بعد ظهور المطابع، فصححوا نسخه، وقابلوا بعضها ببعض، وأكملوا ما نقص، وشرحوا ما غمض، وعقبوا بما ينبغي أن يعقبوا به، وفهرسوا الكتب فهارس متعددة، تيسر البحث والاطلاع، وعرفوا بالمؤلفين ومناهجهم، **نذكر من هؤلاء** :

- **أحمد تيمور باشا** (١٣٤٩ هـ – ١٩٣٠ م) الذي احتوت مكتبته على اثني عشر ألف كتاب ومخطوط.

- **وأحمد زكي باشا** (١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م) فقد جمع أكثر من ستة آلاف مخطوط، والذي قام بتحقيق كتاب «أنساب الخيل» «لابن الكلبي»، «والأصنام» لابن الكلبي أيضاً، وقد طبعا بمطبعة بولاق سنة ١٩١٤ م (المطبعة الأميرية الآن)، ولعل هذين الكتابين مع كتاب «التاج» للجاحظ الذي حققه أيضاً، من أوائل الكتب التي كتب في صدرها كلمة «بتحقيق» كما أن تلك الكتب قد حظيت بإخراجها على أحدث المناهج العلمية للتحقيق، مع استكمال المكملات الحديثة، من تقديم النص إلى القراء، ومن إلحاق الفهارس التحليلية، ويضاف إلى ذلك أنه أول من أشاع إدخال علامات الترقيم الحديثة، في المطبوعات العربية، وألف في ذلك كتاباً، سماه «الترقيم في اللغة العربية» طبع في مطبعة بولاق سنة ١٩١٣ م، ومما حققه أيضاً، كتاب «نَكْت الهِميَان في نُكَت العِميان» لصلاح الدين الصفدي، ونشره عام ١٣٢٩ هـ/ ١٩١١ م.

ومن الذين قاموا على حراسة العربية، وجاهدوا في سبيلها، وكشفوا عن جوانب فذة منها هؤلاء الأعلام:

أحمد محمد شاكر، ومحمود محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون، والسيد أحمد صقر، وعبد العزيز الميمني الراجكوتي، وأحمد راتب النفاخ.. وغيرهم .. وغيرهم ..

ولا ننسى تلك الهيئات الكبيرة والكثيرة في مصر وفي العالمين العربي والإسلامي، كالجامعة العربية، والمجلس الأعلى لرعاية الآداب والعلوم والفنون والجامعات والمعاهد العليا ومجامع اللغة العربية، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية.. وغيرهم ..

فقد بذلت جهوداً حميدة مشكورة في إحياء التراث وتحقيقه، ونشر هذا التراث الذي نعنى به كانت له آثاره العظمية في نهضة أوربا، لأنه هو الأساس الذي قام عليه المذهب العلمي التجريبي..

وقد سرت الحضارة العربية الإسلامية إلى أوربا في عدة غدران، منها إسبانيا وصقلية وإيطاليا، ومنها الحروب الصليبية، وذلك أنه منذ سنة (٥٥٥ هـ/ ١١٣٠ م) بدأ مكتب للتراجمة في طليطلة ينقل - برعاية رئيس الأساقفة أهم كتب العرب إلى اللغة اللاتينية..

وحسبنا أن نشير إلى أن علم الضوء مدين لكتاب (المناظر) للعلامة ابن الهيثم.

كما أن أصول الرياضيات مدينة للعلامة الخوارزمي، وإليه ينسب علم الجبر.

وكما أن أصول علوم الهيئة والنجوم والفلك ترجع إلى كتاب (القانون) للمسعودي، كذلك كان لكتب ابن سينا في الطب أثرها العظيم إلى أواخر القرن الثامن عشر.

ولقد قضت أوربا ثلاثة قرون، من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر وهي تترجم كتب العربِ إلى اللغة اللاتينية، ولم تقتصر على مؤلفات ابن سينا، وابن رشد، والرازي ونظرائهم، بل إنها ترجمت عن العربية كتب اليونان التي كان العرب قد ترجموها، مثل كتب جالينوس وبقراط وأفلاطون وأرسطو وإقليدس، وبطليموس، فزاد عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللغة اللاتينية على ثلاث مئة كتاب.

ولم يظهر في أوربا قبل القرن الخامس عشر عالم لم يستنسخ كتب العرب ولم ينتفع بها ومن الذين استنسخوا كتب العرب وانتفعوا بها روجر بيكون، وألبرت الكبير، وتوماس الأكويني، وغيرهم، قال رينان: إن ألبرت الكبير مدين لابن سينا، وإن توماس الأكويني مدين لابن رشد.

وقد ظلت ترجمات الكتب العربية ولا سيما الكتب العلمية هي المصدر الوحيد تقريباً للتدريس في جامعات أوربا قرابة ستة قرون.

وبفضل هذه الترجمات عرف الغرب كتب اليونان التي ضاع أكثرها، مثل كتاب جالينوس في الأمراض السارية، وكتاب أرسطو في الحجارة، وكتاب أبو لونيوس في المخروطات، كما ذكر الدكتور لوكلير في كتابه (تاريخ الطب العربي)، وقد عقب جوستاف لوبون على هذا بقوله: «إذا كانت هنالك أمة نقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان»، فعلى العالم أن يعترف للعرب بعد الإسلام بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة، قال ليبري: لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا عدة قرون.

فإذا مارجعنا إلى ورق الكتابة حدثنا التاريخ بأن العرب عرفوه من الصين في القرن الثاني للهجرة، لكنهم لم يلبثوا أن أنشأوا المصانع لإنتاجه منذ القرن الثالث في مصر والأندلس والمغرب، وبلغت صناعة الورق على أيديهم درجة عالية من الجودة سواء أكان أبيض ناصعًا أم ملونًا وعن العرب نقلت أوربا هذه الصناعة في القرن السادس للهجرة، إذ كانت حضارتهم تعمر الأندلس وإيطاليا وجنوبي فرنسا.

وبعد،

فقد آن للذين يتساءلون عن بواعث حفاوتنا بتراثنا العربي أن يدركوا قيمته وآثاره وأسباب عنايتنا به وحرصنا على إحيائه على المستوى العالمي، بإذن الله تعالى ..